

ولا بُدَّ له - مع ذلك - من دراسة أخبار الناس، وتَحَفُّظِ عيون الحديث؛ ليدخلها في تضاعيف سطره متمثلاً إذا كتب، ويَصِلَ بها كلامه إذا حاور.
ومَدَارُ الأمر على القُطْب، وهو العقل وَجُودَةُ القريحة؛ فإن القليل معهما يَأْذَنُ الله كَافٍ، والكثير مع غيرهما مَقْصَر.

ونحن نستحبُّ لِمَنْ قَبْلَ عَنَا وَاتَّمَّ بَكْتَبْنَا أَنْ يُؤدِّبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يُؤدِّبَ لِسَانَهُ، ويَهْدُبَ أخلاقه قَبْلَ أَنْ يَهْدُبَ أَلْفَاظَهُ، ويَصُونْ مُرُوءَتَهُ عَنِ دَنَاءَةِ الْغِيْبَةِ، وَصِنَاعَتَهُ عَنِ شَيْنِ الْكَذِبِ، ويجانب - قبل مجانبته اللحنَ وَخَطْلَ الْقَوْلِ - شَنِيعَ [١٣] الْكَلَامِ وَرَفْتَ ^(١) الْمَرْحِ: كان رسول الله ﷺ - ولنا فيه أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ - يَمْزُجُ وَلَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا، وَمَارَحَ عَجُوزًا فَقَالَ: «إِنْ الْجَنَّةُ لَا يَدْخُلُهَا عَجُوزٌ» ^(٢) وَكَانَتْ فِي عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ دُعَابَةٌ، وَكَانَ ابْنُ سِيرِينَ يَمْزُجُ وَيَضْحَكُ حَتَّى يَسِيلَ لُعَابُهُ، وَسُئِلَ عَنْ رَجُلٍ فَقَالَ: تَوَفَّى الْبَارِحَةَ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعَ السَّائِلَ قَرَأَ: **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا** ^(٣) [المر: ٤٢]، وَمَارَحَ مُعَاوِيَةَ الْأَخْنَفَ بْنِ قَيْسٍ فَمَا رَأَى مَارَحَانَ أَوْقَرَ مِنْهُمَا، قَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: يَا أَخْنَفُ، مَا الشَّيْءُ الْمُتْلَفُ فِي الْجِدَادِ؟ قَالَ لَهُ: السَّخِينَةُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَرَادَ مُعَاوِيَةُ قَوْلَ الشَّاعِرِ ^(٤):

إِذَا مَا مَاتَ مَيِّتٌ مِنْ تَمِيمٍ فَسَرَّكَ أَنْ يَعِيشَ فَجِيءَ بَزَادٍ
بَخْبِرٍ، أَوْ بَثْمَرٍ، أَوْ بِسَمْنٍ، أَوْ الشَّيْءِ الْمُتْلَفِ فِي الْجِدَادِ
تَرَاهُ يُطَوِّفُ الْأَفَاقَ حِرْصًا لِيَأْكُلَ رَأْسَ لُقْمَانَ بْنِ عَادٍ

(١) «شَنِيعَ الْكَلَامِ وَرَفْتَ الْمَرْحِ» هَذَا مَفْعُولٌ يَجَانِبُ، أَمَّا قَوْلُهُ «اللَّحْنُ وَخَطْلُ الْقَوْلِ» فَمَفْعُولٌ بِهِ لِلْمَصْدَرِ الَّذِي هُوَ مُجَانِبَةٌ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يَتْرَكُ شَنِيعَ الْكَلَامِ وَرَفْتَ الْقَوْلِ قَبْلَ أَنْ يَتْرَكَ اللَّحْنَ وَخَطْلَ الْقَوْلِ.

(٢) بَكَتْ هَذِهِ الْعَجُوزُ حِينَ سَمِعَتْ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهَا: «إِنَّكَ لَسْتَ بِعَجُوزٍ يَوْمَئِذٍ» وَقَرَأَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: **إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً * فَجَعَلْنَهُنَّ أَجْحَارًا** [الواقعة: ٣٥ - ٣٦].

(٣) هَذِهِ الْآيَاتُ لِزَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الصَّقْعِ الْكَلَابِيِّ، وَذَكَرَ الْجَاهِظُ أَنَّهَا لِأَبِي الْمَهْشُوشِ الْأَسَدِيِّ، قَالَهُ ابْنُ السَّيِّدِ الْبَيْطَلِيُّ سِي، وَكَانَ بَنُو تَمِيمٍ قَوْمَ الْأَخْنَفِ يَعِيرُونَ بِحُبِّ الطَّعَامِ وَالشَّرِّ إِلَيْهِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ زَيْدٍ أَيْضًا:

أَلَا أَبْلُغُ لَدَيْكَ بَنِي تَمِيمٍ بِأَيَّةِ مَا يَحْبُونَ الطَّعَامَا
وَكَانَتْ قَرِيشٌ - وَهُمْ قَوْمُ مُعَاوِيَةَ - تَغِيرُ بِأَكْلِ السَّخِينَةِ، حَتَّى سَمَوْهُمْ سَخِينَةً، قَالَ خَدَّاشُ بْنُ زُهَيْرٍ.

يَا شِدَّةَ مَا شَدَدْنَا يَوْمَ ذَاكَ عَلَى ذَوِي سَخِينَةٍ لَوْلَا اللَّيْلُ وَالْحَرَمُ
وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ شَاعِرُ النَّبِيِّ ﷺ:

زَعَمْتَ سَخِينَةً أَنْ سَتَغْلِبَ رِبَهَا وَلِيُغْلِبَنَّ مَغَالِبَ الْغَلَابِ

[١٤] و«الملفُف في البجاد» وطُبَّ اللبن^(١)، وأراد الأحنف أن قريشاً [كانت] تُعَيِّرُ بأكل السَّخِينَةِ، وهي جِساء من دقيق يُؤخذ عند غلاء السَّعْرِ، وعَجَفَ المال، وكَلَبَ الزمان^(٢)؛ فهذا وما أشبهه مَزْجُ الأشراف، وذوي المُرُوءَات؛ فأما السَّبَابُ وشَتْمُ السَّلَفِ وذِكْرُ الأعراض بكبير الفَوَاحِش؛ فمما لا نرضاه لِحَسَاسِ العبيد وصِغَارِ الولدان.

ونستحبُّ أن يَدْعَ في كلامه التَّعْيِيرَ والتَّقْيِيبَ^(٣)، كقول يحيى بن يَعْمُرٍ لرجل خَاصَمَتُهُ امرأته [عنده]: «أَأَنْ سَأَلْتُكَ ثَمَنْ شَكَرَهَا وَشَبَّرَكَ، أَنْشَأْتَ تَطْلُهَا وَتَضْهَلُهَا»^(٤)، وكقول [١٥] عيسى بن عمر - ويوسف بن عمر بن هُبَيْرَةَ يضر به بالسياط - «والله إن كانت إِلَّا أُثْيَابًا في أُسَيْفَاتٍ قَبَضَهَا عَشَارُونَ»^(٥).

فهذا وأشباهه كان يُسْتَقْبَلُ والأدبُ غَضٌّ والزمان زمان، وأهله يَتَحَلَّوْنَ فيه بالفصاحة، ويتنافسون في العلم، ويروونه تَلَوُّ المقدار في ذَرَكٍ ما يطلبون وبلوغ ما يؤمَّلُونَ، فكيف به اليوم مع انقلاب الحال، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ الثَّرَاوُونَ الْمُتَفَيِّهُونَ المتشذِّقُونَ»^(٦) ١١٩٩

ونستحبُّ له - إن استطاع - أن يَعدِلَ بكلامه عن الجهة التي تُلْزِمُهُ مستَقْبَلُ الإعراب؛ لِيَسْلِمَ من اللحن وقباحة التعجير؛ فقد كان واصل بن عطاء ساءَ نفسه للثَغَةِ [كانت به] لإخراج الرأى من كلامه، [وكانت لثَغَتُهُ على الرأى]؛ فلم يزل يَرُوضُها حتى انقادت له طِبَاعُهُ، وأطاعه لسانه؛ فكان

(١) الوطب - يفتح فسكون - زق اللبن خاصة، والبجاد - بكسر الباء - هو الكساء فيه خطوط. وكانوا يلفون الوطب في البجاد ويتركونه حتى يروب اللبن.

(٢) «كَلَبَ الزمان» شدته وقطعه، و«عَجَفَ المال» هزاله وضعفه.

(٣) التعجير: الانتهاء إلى قعر الشيء، هذا أصله، وتقول: «قعر الرجل» إذا روى فنظر فيما يغمض من الرأى حتى يستخرجه، كأنه إذا تكلم بكلام غريب عويص احتجج إلى إخراج معانيه كما يحتاج إلى إخراج ما في القعر، والتقييب مثل التعجير، ومعناه التعمق.

(٤) الشكر - يفتح فسكون - الفرج، والشبر - يفتح فسكون - النكاح، و«تطلها» تمنعها حقها، و«تضهلها» تعطيلها القليل من حقها.

(٥) «عيسى بن عمر» ثقفى من أهل البصرة، من متقدمي النخاة، عنه أخذ الخليل بن أحمد، وهو صاحب كتابي الإكمال والجامع، وكان صاحب تعجير في كلامه واستعمال للغريب فيه. و«يوسف بن عمر» هو أبو عبد الله يوسف ابن عمر بن هبيرة الثقفى ابن عم الحجاج بن يوسف، ولى اليمن لهشام بن عبد الملك، ثم لاه العراق ومحاسبة خالد ابن عبد الله القسري، و«أثياب» تصغير أثواب الذي هو جمع ثوب، و«أسيفاط» تصغير أسفاط وهو جمع سفاط، وهو - بفتحين - يشبه القفة، والعشارون: جمع عشار وهو الذي يأخذ من القوم عشر أموالهم، وهو عامل الزكاة.

لا يتكلم [١٦] في مجالس التناظر بكلمة فيها راء، وهذا أشد وأعسر مطلباً مما أردناه.

وليس حكم الكتاب في هذا الباب تحكم الكلام؛ لأن الإعراب لا يفتح منه شيء في الكتاب ولا يثقل، وإنما يكره فيه. وخشي الغريب، وتعقيد الكلام، كقول بعض الكتاب^(١) في كتابه إلى العامل فوقه «وأنا محتاج إلى أن تُنفذ إلي جيشاً لجباً عزمزماً»، وقول آخر^(٢) في كتابه: «عَصَب عَارِضُ أَلَمٍ أَلَمٍ فَأَنْهَيْتُهُ غُذْرًا» وكان هذا الرجل قد أدرك صدرًا من الزمان، وأُعْطِيَ بَسْطَةً في العلم واللسان، وكان لا يُشَان في كتابته إلا بتوكيد سهل الألفاظ ومستعمل المعاني، وبلغني أن الحسن بن سهل أيام دولته رآه يكتب وقد ردَّ عن هاء «الله» خطأ من آخر السطر إلى أوله، فقال: ما هذا؟ فقال: طُعْيَان في القلم. وكان هذا الرجل صاحب جِدٍّ، وأخا وَرَعٍ ودين، لم يمزح بهذا القول، ولا كان الحسنُ أيضًا عنده ممن يُمَارَح.

ونستحبُّ له أيضًا أن يُنَزِّل ألفاظه^(٣) في كتبه [١٧] فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، وأن لا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس ضيع الكلام؛ فإني رأيت الكتاب قد تركوا تفقد هذا من أنفسهم، وخلطوا فيه؛ فليس يفرقون بين من يكتب إليه «فَرَأَيْكَ في كذا» وبين من يكتب إليه «فَإِنْ رَأَيْتَ كذا» و«رَأَيْكَ» إنما يُكْتَبُ بها إلى الأكفاء والمساوين، لا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء والأستاذين^(٤)؛ لأن فيها معنى الأمر، ولذلك نُصِبَتْ، ولا يفرقون بين من يكتب إليه «وأنا فعلت ذلك» وبين من يكتب إليه «ونحن فعلنا ذلك» و«نحن» لا يكتب بها عن نفسه إلا أمرًا أو نهيًا؛ لأنها من كلام الملوك والعظماء، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [الفر: ٤٩] وعلى هذا الابتداء خوطبوا في [١٨] الجواب، فقال تعالى حكايةً عن حضره الموت: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنين: ٩٩-١٠٠] ولم يقل رَبِّ ارْجِعْ. وربما صدر الكاتب

(١) لم أفق على اسم هذا الكاتب، ولم يبينه أحد من شراح الكتاب، واللجب - بفتح فكسر - ذو الأصوات المختلطة لكثرة، والمرمر - بزنة سفرجل - الكثير أيضًا، وأصله من العرام، وهو الحدة والشرة.

(٢) ذكر الجواليقي أن اسم هذا الكاتب (أحمد بن) شريح، من أهل مرو، و«عصب» أي: قطع، والألم: المرض، وعارضة: ما يحدث منه ويطرأ، «ألم» فعل ماضٍ معناه نزل، و«أنهيته» جعلته نهاية، أو أبلغته، وكان هذا الرجل قد أخذ على نفسه قضاء مهمة لأحد إخوانه، فنزل به مرض، فأراد أن يعتذر لصديقه بمرضه عن التأخر في قضاء ما التزمه.

(٣) تنزيل الكلام: ترتيبه، ووضع كل شيء منه في مرتبته اللائقة به، وذكره في الوقت الذي ينبغي فيه.

(٤) في نسخة «والأساتذة».

كتابته بـ «أكرمك الله» و«أبقاك» فإذا توسط كتابه، وعدّد على المكتوب إليه ذنوبًا له، قال: «فَلَعَنَكَ اللهُ وَأَخْرَاكَ» فكيف يكرمه الله ويلعنه ويخزيه في حال ١١٩٩! وكيف يُجَمِّعُ بين هذين في كتاب؟ وقال أثيريوز لكتابه في تنزيل الكلام: «إنما الكلام أربعة: سؤالك الشيء، وسؤالك عن الشيء، وأمرك بالشيء، وخبرك عن الشيء؛ فهذه دعائم المقالات إن التمس إليها خامس لم يوجد، وإن نَقَصَ منها رابع لم تتم؛ فإذا طَلَبْتَ فَأُسَجِّعْ^(١)، وإذا سَأَلْتَ فَأَوْضِغْ، وإذا أَمَرْتَ فَأُخَيِّمِ، وإذا أَخْبَرْتَ فَحَقِّقْ» وقال [له] أيضًا: «واجمع [١٩] الكثير مما تريد في القليل مما تقول» يريد الإيجاز، وهذا ليس بمحمود في كل موضع، ولا بمختار في كل كتاب، بل لكل مقام مقال، ولو كان الإيجاز محمودًا في كل الأحوال لجرّده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرّر تارة للإفهام، وعلّل هذا مستقصاة في كتابنا المؤلف في «تأويل مُشكِكِ القرآن» وليس يجوز لمن قام مقامًا في تحضيض على حرب أو حِمَالَة بدم^(٢) أو صلح بين عشائر أن يُقَلِّلَ الكلامَ وَيُخْتَصِرَهُ، ولا لمن كتب إلى غامّة كتابًا في فتح أو استصلاح أن يُوجِزَ. ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير عن المعصية يَكْتُبُ يَزِيدُ بن الوليد إلى مَرْوَانَ حين بلغه عنه تَلَكُّؤُهُ في بيعته «أمّا بعد [٢٠] فإنني أَرَاكَ تُقَدِّمُ رَجُلًا وَتُؤَخِّرُ أُخْرَى، فَأَعْتِمِدْ عَلَى أَيْتِهْمَا شِئْتَ، وَالسَّلَامُ»؛ لم يَعْمَلْ هذا الكلام في أنفُسِهَا عَمَلُهُ في نفس مَرْوَانَ، ولكن الصواب أن يُطِيلَ وَيُكَرِّرَ، وَيُعِيدَ وَيُعِيدِيءَ، وَيُحَدِّثُ وَيُنْذِرُ.

هذا منتهى القول فيما نختاره للكاتب؛ فمن تَكَامَلَتْ له هذه الأدوات، وأمدّه الله بآداب النفس - من العَفَافِ، والحلم، والصبر، والتواضع للحق، وسكُونِ الطائر، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ - فهذا^(٣) المتناهي في الفضل، العالي في ذَرَى المجد، الحاوي قَصَبَ السبق، الفَائِزُ بخير الدارين، إن شاء الله تعالى.

(١) «أسجح» أي: أرفق وسهل، ومنه قول عقبة الأسدي:

معاوي إننا بشر؛ فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد
وفي أمثالهم «ملكنت فأسجح» وقوله: «وإذا سألت فأوضح» أي: بين سؤالك.

(٢) التحضيض والحض: الإغراء بالشيء والترغيب فيه، والحمالة - بفتح الحاء - الكفالة، والحميل: الكفيل وزنا ومعنى، والعشائر: جمع عشيرة.

(٣) في ١ «فذلك المتناهي».